اسم الدرس : تفسير سورة الإنشقاق

تصنيف الدرس : خطبة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله –صلى الله عليه وسلم–.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ } [آل عمران: ١٠٢]

أما بعد أحبتي في الله، خلق الله –عز وجل– الخلق ليبتليهم، وقال ربنا –سبحانه وتعالى– {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[الذاريات: ٥٦] خلقنا الله –سبحانه وتعالى– ليبلونا أينا أحسن عملًا، ومن رحمته –سبحانه وتعالى– أنه لم يتركنا سدى، بل أنزل إلينا الكتب وأرسل إلينا الرسل، فمن تمسك بالوحي نجا ومن أعرض عنه زل وضل وابتعد عن الصراط المستقيم.

معنا اليوم سورة من الوحي، سورة من كتاب الله –عز وجل– نتأمل فيها، نأخذ منها العظات والعبر، نتخلق بأخلاقها ونعيش معانيها، علّ الله –عز وجل– أن يرحمنا بها وأن يرفعنا بها في الدارين، في الدنيا والأخرة.

يقول الله –عز وجل– في كتابه الكريم: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾

هذه السورة العظيمة التي قال عنها النبي –صلى الله عليه وسلم–:

من سرّهُ أن ينظرَ إلى يومِ القيامةِ كأنّه رأيَ العينِ فليقرأ إذا الشّمْسُ كُوِّرَتْ وَ إذا السَّماءُ انْشَقَّتْ وَ إذا السَّماءُ انْفَطَرَتْ [1]

[1] الألباني (١٤٢٠ هـ)، السلسلة الصحيحة ١٠٨١ •إسناده صحيح

هذا الجزء الثالث الذي يكمل لنا النظرة الحقيقية للدار الأخرة، كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم-.

هذه السورة التي تبين لنا معنى الكدح، وأن الإنسان لابد أن يعمل كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- (كُلُّ النّاسِ يَغْدُو) كل إنسان يعمل، كل إنسان يصاب بالتعب، كل إنسان يبذل، (كُلُّ النّاسِ يَغْدُو فَبايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها، أوْ مُوبِقُها)[٢] .

هذه السورة العظيمة التي بدأت بقول الله -عز وجل- : { إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}[الإنشقاق:١،٢]

هذه السماء العظيمة، هذه القبة الزرقاء التي حفظها الله -عز وجل- من التغيير والتبديل، التي رفعها الله -عز وجل- بغير عمد طوال هذه الفترة من الدنيا، يأتي عليها يوم قطعًا وحتمًا - وهذا ما تفيده أداة الشرط (إذا)- سوف يأتي حتمًا، سوف يأتي قطعًا، لابد أن تتغير هذه السماء، ما الذي سوف يحدث لها

{إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ} تمر السماء بمراحل؛ في (سورة الانفطار) قال الله -عز وجل- {إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ }[الإنفطار: ١]، والانفطار هو بداية التقطيع، هو بداية ظهور التغيير، أما في هذه السورة يخبرنا الله -عز وجل- أنها تنشق تمامًا، والانشقاق هو التقطيع ولكن مع الشدة ومع عدم رجوع، لذلك عندما يكون الأمر صعب على نفسك تقول: (الأمر فيه مشقة، شق عليَّ الأمر) فإذا السماء انشقت أي أن السماء تتقطع وهذا التقطيع يكون فيه صعوبة، ولن تعود مرة أخرى
{يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ }[ابراهيم: ٤٨] أي أن السموات سوف تتبدل، سوف تتغير هذه السماء التي نراها، فيقول الله عز وجل: سوف يأتي يوم على السماء فتنشق ، هذا الحدث الصعب الذي تقوم به السماء، لماذا تفعل السماء هكذا؛ إنها تأذن لربها

{وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ} أي أطاعت أمر الله -عز وجل- لم تفعل السماء هكذا من تلقاء نفسها، ولكنها فعلت هذا استجابة لأمر مولاها، استجابة لأمر ربها، حتى لو كان هذا الفعل شاقًا عليها، لكنها تستجيب لأمر الله عز وجل، وهذا الذي ينبغي على الإنسان أن يفعله مهما كان الفعل شاقاً عليه، لابد أن يستجيب لأمر الله -عز وجل- { وَأَذِنَتْ} أي استمعت سماع طاعة، {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ} وأذنت لربها أي استمعت لأمر مولاها، استمعت باهتمام، استمعت بعناية، لا كما يفعل المشركون في

[٢] مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٢٣ • [صحيح]

آخر هذه السورة؛ فما بالهم إذا قرئ عليهم القرآن لا يستمعون له، إذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون {فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ} [الإنشقاق:٢٠-٢٣]

أما أول هذه السورة فيظهر لنا التضاد بين ما تفعله المخلوقات من السموات والأرض، هذه المخلوقات العظيمة تستجيب لأمر ربها، وتستمع لأمر ربها، ولكن المشركين يعرضون عن السماع لأمر الله -عز وجل-، فـ (أَذِنَتْ) أي استمعت بعناية واستمعت باهتمام، تنتظر أمر ربها -سبحانه وتعالى.

كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الله -عز وجل- (ما أَذِنَ اللَّهُ لِشيءٍ ما أَذِنَ لِنَبِيٍّ يَتَغَنّى بالقُرْآنِ)[٣] . -أي ما استمع الله لشيء- ، هو شيء يستحق الاهتمام والعناية.

فـ (أَذِنَتْ) تأتي هنا في هذه السورة للمخلوقات -السماء والأرض- أي استمعت بعناية وباهتمام تنتظر أمر ربها كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن المَلَك الذي يمسك الصور ويحني جبهته ينتظر أمر ربه سبحانه وتعالى[٤]

هكذا السماوات باتساعها تنتظر أمر الله -عز وجل- تكون خاضعة لأمر الله -عز وجل- فقالتا -أي السماوات والأرض-: {أَتَيْنَا طَائِعِينَ }[فصلت: ١١]

{وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا} نعم تستمع لربها، وهل تستمع لعدوها؟!

تستمع لمولاها الذي خلقها {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا }[الكهف: ٥٠]

---

[٣] مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٧٩٢ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٥٠٢٣)، ومسلم (٧٩٢) واللفظ له

[٤] كنتُ عند عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها وعندها كعبُ الأحبارِ فذكر إسرافيلَ، فقالت عائشةُ: يا كعبُ أخبِرْني عن إسرافيلَ؟ فقال كعبٌ: عندكم العِلمُ، قالت: أجل، قالت: فأخبِرْني، قال: له أربعةُ أجنحةٍ جناحان في الهواءِ وجَناحٌ قد تسَرْبل به، وجناحٌ على كاهلِه، والقلمُ على أذنِه، فإذا نزل الوحيُ كتب القلمُ، ثمَّ درسَت الملائكةُ، وملكُ الصُّورِ جاث على إحدى رُكبَتَيْه وقد نصب الأخرى فالتقم الصُّورَ يحني ظهرَه، وقد أُمِر إذا رأى إسرافيلَ قد ضمَّ جناحَه أن ينفُخَ في الصُّورِ، فقالت: عائشةُ: هكذا سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ

المنذري (٦٥٦ هـ)، الترغيب والترهيب ٢٨٨/٤ • إسناده حسن • أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٩٢٨٣)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٦٩٤/٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤٧/٦) باختلاف يسير

إذا لم يستمع الإنسان إلى ربه سوف يستمع إلى عدوه قطعًا، سوف يستمع الى الشيطان.

لقد فُطر الانسان على أنه لابد أن يستمع لأحد، الانسانُ ينتظر وحيًا حتى يسير وراءه، إما أن ينتظر وحي الله –عز وجل– ويتبعه أو ينتظر وحي الشيطان ويتبعه.

فقال الله عز وجل عن السماوات أنها {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا} استمعت لكلام مولاها الذي رباها بنعمه، الذي خلقها، هي مربوبة لله –سبحانه وتعالى– { وَحُقَّتْ} ماذا تعني؟ {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ} أي وقع عليها الأمر، وحق عليها القول، فاستجابت ولا يكون لها إلا الاستجابة. {وَحُقَّتْ} أي حُق لها أن تطيع أمر الله –عز وجل–، ليس لها مفرٌ من هذا.. فحُقت: أي وقع عليها القول أنها مذللة، أنها مسخرة، لن تستطيع أن تفر من أمر مولاها.. إنها جديرةٌ بطاعة الله –عز وجل–، كما قال موسى عليه السلام: {حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ}[الأعراف: ١٠٥] أي: حقٌ عليّ ألا أقول على الله –عز وجل– إلا الحق، أنا رسول من عند الله –عز وجل–.

كذلك السماء هي مخلوقة لله –عز وجل–، حُقت: أي وقع عليها القول، كانت طائعة لأمر الله –عز وجل– هي جديرة بذلك، حُق لها ذلك، كما قال المشركون يوم القيامة: {فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ}[الصافات: ٣١] إذًا هذه الآيات تُبين لنا أن المخلوقات العظيمة تطيع أمر الله –عز وجل–، هي مسخرة مطيعةٌ لأمر الله –عز وجل–.

أما الإنسان فمَنّ الله عليه وأعطاه الأمانة: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[الأحزاب: ٧٢] هذه الأمانة التي تُعطي حرية الاختيار للإنسان... { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}[البلد: ١٠] هذه الأمانة هي التكليف الذي كُلف به الإنسان، لذلك قال الله –عز وجل– عن الإنسان في هذه السورة: {إِنَّكَ كَادِحٌ} أنت تبذل، أنت تصاب بالتعب، أنت تختار الطريق الذي تريد أن تسير فيه وسوف تحاسب عليه، ولكن السماوات والأرض {أَذِنَتْ لِرَبِّهَا} –سبحانه وتعالى–، حُق عليها ذلك، كانت مسخرة لأمر الله –عز وجل–، لم تحمل الأمانة، لم تحمل التكليف، لم تحمل الاختيار، هذه الأمانة حملها الإنسان، ولابد أن يكون كفئًا لها، لذلك قال الله –عز وجل– في هذه السورة: {إِنَّكَ كَادِح } وسوف يأتي معنا.

ثم قال الله –عز وجل–: { وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ}[الإنشقاق: ٣]

قيل مُدت: أي نُسف ما عليها من جبال وكانت قاعًا صفصفًا، لا ترى فيها عِوجًا ولا أمتًا، وقيل مُدت بعد أن كانت كروية أصبحت ممدودة وتبدلت وتغيرت {وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ} ما فيها من أموات، ما فيها من كنوز.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: تَقِيءُ الأرْضُ أفْلاذَ كَبِدِها، أمْثالَ الأُسْطُوانِ مِنَ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ، فَيَجِيءُ القاتِلُ فيَقولُ: في هذا قَتَلْتُ، ويَجِيءُ القاطِعُ فيَقولُ: في هذا قَطَعْتُ رَحِمِي، ويَجِيءُ السَّارِقُ فيَقولُ: في هذا قُطِعَتْ يَدِي، ثُمَّ يَدَعُونَهُ فلا يَأْخُذُونَ منه شيئًا.[٥]

{وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ}[الإنشقاق: ٤]

كلمة تخلت: وكأن الأرض لا تريد أن يطلب أحدٌ منها شيئًا في هذا اليوم، وكأن الأرض تريد أن تتخلى عن أي تبعة من التبعات، لا تريد أن تتحمل شيئًا، تريد أن تكون خالية من أي تبعة من التبعات، ولذلك يتمنى المشرك أن يكون مثل الأرض: {وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا}[النبإ: ٤٠] يا ليتني أُلقي ما عندي وأتخلى عن أي محاسبة، الأرض تُلقي ما فيها وتتكلف التخلية {أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ} تخلت عن أن تُسأل.. تخلت عن أي شيء حتى لا يسألها ربها –سبحانه وتعالى– عن أي شيء، هي خاضعة لأمر مولاها –سبحانه وتعالى– الأمر عظيم، ما هو الأمر الجلل الذي جعل هذه السماوات باتساعها تنشق استجابة لأمر الله –عز وجل–؟

ما هو الأمر الذي حدث فجعل هذه الأرض تُلقي بكل ما فيها، وتتخلى عن أي شيء، حتى لا يسألها أي أحد، وحتى لا يسألها ربها عن أي شيء،

فهي {أَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}[الإنشقاق: ٥]

أي أيضًا الأرض كما فعلت السماء، الأرض أطاعت ربها استمعت لأمر ربها بعناية، ثم بعد الاستماع نفذت أمر الله –عز وجل– ، هذا هو المطلوب من الإنسان؛ أن يستمع لأمر الله بعناية ثم ينفذ أمر الله –عز وجل–، ولكن الإنسان مخير في هذه الدنيا؛ إما أن يختار هذا الطريق أو هذا الطريق

[٥] مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ١٠١٣ • [صحيح]

{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[الانسان: ٣] الإنسان هو الذي يختار الطريق الذي يسير فيه إلى الله عز وجل.

{ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ } أي أيضًا الأرض وقع عليها القول، حُق لها أن تستجيب لأمر الله فالأرض أيضا جديرة بالاستجابة لأمر الله، هي مسخرة للاستجابة لأمر الله، فلا تعترض الأرض وتقول كنت كروية كيف أصبح اليوم ممدودة، لا تعترض السماء كيف أنشق بعد كل هذه المدة الطويلة من الاتساع، لا يعترضان! ولكنهما يقولان { أَتَيْنَا طَائِعِينَ}[فصلت: ١١]

أما الإنسان، هذا المخلوق الذي يعصي نشازًا في هذا الكون،

يقول الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}[الإنشقاق: ٦]

هذا الخطاب لكل البشرية يُذكِر الإنسان، يا أيها الإنسان مَنّ الله عليك بنعمة الإنسانية، نعمة الاختيار، نعمة العقل، نعمة التكليف، إنها الأمانة التي حُمّلتها، إنها أمانة التكليف، أمانة الاختيار، يا أيها الانسان {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ}[الإسراء: ٧٠] هذا هو التكريم، الإنسان يختار الطريق الذي يريد أن يسير فيه، ولكن هذا الاختيار له تبعات، لابد أن يحاسب عليه {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ} أنت تصاب بالتعب في هذه الدنيا، قال ربنا سبحانه وتعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ }[البلد: ٤] .. كل إنسان يصاب بالتعب؛ العاصي يصاب بالتعب.. والمؤمن يصاب بالتعب، كل الناس يذوقون التعب، يذوقون الكبد، يذوقون الكدح، {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ} الكدح هو شيء أقل من الكدمة، الكدح نوع من الجروح، وكأن الإنسان يحفر في شيء، يبحث عن شيء، يجاهد من أجل الوصول إلى شيء، كل الناس تشعر بداخلها أنها تبحث عن شيء، هذا يبحث عن المال، وهذا عن السعادة، وهذا يبحث عن الولد وهذا يبحث عن المنصب، كل الناس تبحث عن شيء، تحفر من أجل شيء، تجاهد من أجل شيء.

يقول الله –عز وجل– الحقيقة أن كل الناس يصلون إلى الله يعلمون ذلك أو لا يعلمون، أنك كادح، الحقيقة التي أنت غافل عنها، أنك كادح إلى ربك، أفق!

آخر هذا الطريق الذي تتعب فيه والذي تحمل فيه الهم، انتبه! إن آخر هذا الطريق هو ملاقاة الملك – سبحانه وتعالى–.

هذه المعلومة كل الناس يعلمونها أنهم كادحون، أنهم في كبد، أنهم في نصب، لكن هذه هي نصف المعلومة، النصف الآخر {إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ} انتبه! آخر هذا الطريق الذي تسير فيه سوف تلاقي الله –عز وجل–.. سوف تُلاقي ثمرة عملك، سوف تحاسب على تبعة هذه الأعمال.

{إِنَّكَ كَادِحٌ} أنت تتعب في هذه الدنيا، أنت تتعب باختيارك، أنت تختار الطريق الذي تريد أن تسير فيه، لذلك يقول الله –عز وجل– في أولٌ [سورة البلد] {لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} أقسم الله –سبحانه وتعالى– أن النبي سوف يلاقِ جُلَّ أصناف العذاب والاضطهاد والاستضعاف في مكة، {لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ..} أي استحلوا عِرضك ومالك وجسدك وآذوك، {وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ} هذا نوع من التعب في نصرة دين الله، {وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ} هذا نوع آخر من التعب، مجرد أن يعيش لأجل الولد! لأجل المال!

ثم قال الله –عز وجل– بعد هذين النوعين من التعب: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ}.. هذا يتعب وذاك يتعب، هذا يكدح وذاك يكدح.. (كل الناس يغدو)[٦] ؛ فكل الناس تعمل، وكل الناس تتعب.

قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: أصدقُ الأسماء :حارثٌ وَهمّامٌ[٧] ؛ أصدق الأسماء أي: من يتطابق فعله مع اسمه، فمن الممكن أن يكون شخص اسمه كريم لكنه ليس بكريم، فهذا ليس بأصدق الأسماء، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: أصدقُ الأسماء :حارثٌ وَهمّامٌ ، فيجب على الإنسان أن يحمل همًا - وأن يحرث ويبحث عن شيء، والحرث هو البذر لانتظار النتيجة.

فيقول النبي –صلى الله عليه وسلم– أن كل الناس تتعب، كل الناس تحمل همًا، كل الناس تنتظر نتيجة التعب، فتجد أحدًا يقول لك: أنا منتظر نتيجة التعب مالًا، أنا منتظر نتيجة تعبي أن أراه في أولادي، أنا منتظر نتيجة التعب في كذا.

---

[٦] [عن أبي مالك الأشعري:] الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ المِيزانَ، وسُبْحانَ اللهِ والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلأُ- ما بيْنَ السَّمواتِ والأرْضِ، والصَّلاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهانٌ، والصَّبْرُ ضِياءٌ، والْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ، أوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النّاسِ يَغْدُو فَبايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها، أوْ مُوبِقُها.
مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٢٣ • [صحيح]

[٧] ابن تيمية (٧٢٨ هـ)، مجموع الفتاوى ٢٩٥/١٤ • صحيح

فيقول الله عز وجل أن الذكي، والذي يفقه: هو الذي ينتظر نتيجة تعبه في الآخرة.

{إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}: فأي كدحٍ لا يُبتغَى به وجه الله عز وجل ضائع.. يقول الله عز وجل: {إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ}[النساء:١٠٤] إن كنت تتعب أيها المسلم، فالكفار يتعبون مثلك، لكن الفرق الوحيد بينك وبينهم:{وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ }.. فحتى لا يضيع أجر الألم من المسلمين لا بد أن يرجوا من الله عز وجل ما لا يرجوه المشركون.. حتى لا يضيع ألمك هباءً، وحتى لا يضيع كدحك، وحتى لا يضيع نصبك؛ ابتغِ بهذا وجه الله عز وجل، اجعله لنصرة دين الله عز وجل.

{إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ ..} : سوف تلاقي مولاك، سوف تلاقي ربك.. سوف تلاقي عملك، وسوف تحاسب عليه.

{إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ} أي: فملاقيه قطعًا.. كل عمل أنت عملته سوف تُسأل عنه.. كل عمل أنت تعبت فيه وحملت همه سوف تُسأل عن هذا الهم؛ فيم كان هذا الهم؟ فيم كان هذا التعب؟ هل كان لله سبحانه وتعالى؟ فيم كان هذا الألم وهذا القرح؟ هل كان كل هذا لوجه الله سبحانه وتعالى؟ هل ابتغيت به وجه الله سبحانه وتعالى؟

{إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ} ثم تظهر النتيجة، نتيجة الكدح، نتيجة التعب، نتيجة النصب، ونتيجة الكبد..

فيقول الله عز وجل {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ} [الإنشقاق: ٧]

الأخذ باليمين فيه قوة، فيه شرف، فيه عزة.. يتقدم الإنسان ويأخذ الشيء بيمينه؛ لأنه يكون فرِحًا، يكون عنده عزيمة، يكون فيه فخر، يكون فخورًا بهذا.

{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ} : وكأنه يُهنَّأ أمام الناس على هذا الكدح! بعد وقت طويل من التعب، بعد أن غابت شمس الدنيا، وانتهت الدنيا، تأتي النتيجة، فيقوم المؤمن ويأخذ كتابه بيمينه فرِحًا بما تعب.

فتخيل أنك بعد سنة من العمل وسنة من التعب تأتي في النهاية للتكريم.. يقال: فلان الفلاني، لقد أحسن وفعل كذا وكذا، ويُهنَّأ ويُشرَّف أمام الناس. فهكذا المؤمن ينُادى على رؤوس الخلائق أنه قد تعب في طاعة الله.

في هذه اللحظة يحمد المؤمن كل لحظة بذلها لنصرة دين الله.. في هذه اللحظة يتذكر المؤمن كل مرة أعرض فيها عن نومه وقام ليقوم الليل، كل مرة ترك فيها المال وأنفقه لنصرة دين الله، كل مرة تعب فيها لنصرة دين الله.. يحمد هذه اللحظات ويتذكر هذه اللحظات، ويتمنى لو كان استزاد منها في هذه اللحظات.

{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ} : هذه اللحظات تكون أسعد اللحظات.

{فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا }[الإنشقاق: ٨]

لأنه لابد أن يخطئ، ولكن هذه الأخطاء التي جاءت في وسط كثير من الحسنات تكون لمجرد العرض، فهي أشبه بتذكير نعمة الله عز وجل على الإنسان.

يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: يُدْنى المؤْمِنُ يومَ القِيامَةِ مِن رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حتّى يَضَعَ عليه كَنَفَهُ [٨]

انظر إلى الرحمة، فالطائر لما يأتي صغيره أو ابنه، ويكون خائفًا، يضع عليه كنفه..

(يُدْنى المؤْمِنُ يومَ القِيامَةِ مِن رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حتّى يَضَعَ عليه كَنَفَهُ، فيُقَرِّرُهُ بذُنُوبِهِ) يقول له: أنت فعلت كذا.. (فيَقولُ: هلْ تَعْرِفُ؟ فيَقولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ) أتذكر يوم كذا فعلت كذا؟ فيقول المؤمن: أي ربي، نعم ، أي ربي، أعرف أني فعلت.. (فيقول الله عز وجل له: فإنِّي قدْ سَتَرْتُها عَلَيْكَ في الدُّنْيا، وإنِّي أَغْفِرُها لكَ اليَومَ) ؛ هذا هو العرض السريع الذي يمر به المؤمن قبل أن يدخل الجنة.

[٨] ٢- [عن عبدالله بن عمر:] قالَ رَجُلٌ لابْنِ عُمَرَ كيفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ يقولُ: في النَّجْوى؟ قالَ: سَمِعْتُهُ يقولُ: يُدْنى المُؤْمِنُ يومَ القِيامَةِ مِن رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حتّى يَضَعَ عليه كَنَفَهُ، فيُقَرِّرُهُ بذُنُوبِهِ، فيَقولُ: هلْ تَعْرِفُ؟ فيَقولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ، قالَ: فإنِّي قدْ سَتَرْتُها عَلَيْكَ في الدُّنْيا، وإنِّي أَغْفِرُها لكَ اليومَ، فيُعْطى صَحِيفَةَ حَسَناتِهِ، وَأَمّا الكُفّارُ والْمُنافِقُونَ، فيُنادى بِهِمْ على رُؤُوسِ الخَلائِقِ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا على اللَّهِ.
مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٧٦٨ • [صحيح]

{فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا }، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: من نُوقِشَ الحساب عُذِّبَ [٩] .. فالشخص الذي سيُسأل عن كل شيء: لماذا؟ ومن أين؟ وكيف؟ بالتأكيد سيُعذَّب. المؤمن تُعرض عليه الأعمال عرضًا فقط، لذلك أمنا عائشة لما سمعت هذا قالت: يا رسولَ اللهِ أليسَ الله عز وجل يقول في كتابهِ {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسابًا يَسِيرًا} قال: ذاكَ العرضُ .. هو مجرد عرض سريع يتذكر فيه نعم الله عز وجل عليه في الدنيا وفي الآخرة قبل أن يدخل الجنة؛ حتى يحمد الله عز وجل إذا دخل الجنة

{فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا}[الإنشقاق:٨-٩]

إنه كان في أهله مشفقًا خائفًا، كان وسط أهله يذكرهم دائمًا بالدار الآخرة.. كان يقول لأهله: اتقوا الحرام، لا تأكلوا الحرام، كان يصبّر أهله على ما يبذلونه لنصرة دين الله عز وجل.. كان يصبّر الأهل والأولاد، كان يوقظ الأهل والأولاد لقيام الليل، كان يوقظ الأهل والأولاد لصلاة الفجر.. كان يبذل مع أهله ومع أولاده جهدًا.. كانوا خائفين من الله عز وجل..

اليوم ينقلب إلى أهله مسرورًا، يعود إلى أهله فيقول: ألم أقل لكم سوف يأتي يوم ونفرح فيه سويًا؟ ألم أقل لكم أنه سيأتي يوم نلاقي فيه جزاء هذا التعب وجزاء هذا النصب؟ ألم أخبركم، ألم أقل لكم؟ فينقلب إلى أهله سعيدًا كمن يعود من الامتحان ناجحًا، وكمن يعود من التجارة رابحًا! يعود هو إلى أهله ويطمئنهم، {وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا} .

{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ}[الإنشقاق:١٠] :

هذه المرة الوحيدة في القرآن لم يقل الله عز وجل "بِشِمَالِهِ" ، ولكن قال: "وَرَاءَ ظَهْرِهِ" هو أيضًا يأخذ الكتاب بشماله.

قال بعض أهل التفسير: تُغَلّ يمينه إلى عنقه، وتوضع شماله خلف ظهره، فيأخذ الكتاب من وراء ظهره.

[٩] ٢- [عن عائشة أم المؤمنين:] من حُوسِبَ عُذِّبَ، قال: فقلتُ: يا رسولَ اللهِ أليسَ الله عز وجل يقول في كتابهِ {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسابًا يَسِيرًا} قال: ذاكَ العرضُ ولكن من نُوقِشَ الحسابَ عذّبَ
ابن القيسراني (٥٠٨ هـ)، ذخيرة الحفاظ ٢٢٧٢/٤ • [فيه] حماد بن يحيى بعض أحاديثه لا يتابع عليها • أخرجه البخاري (٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦)، والترمذي (٢٤٢٦)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٦١٨)، وأحمد (٢٥٥١٥) باختلاف يسير، وأبو داود (٣٠٩٣) مطولاً، وابن عدي في «الكامل في الضعفاء» (٢٤٧/٢) واللفظ له

لماذا يأخذ الكتاب من وراء ظهره؟

قال بعض أهل العلم: لأن الله عز وجل لا يريد أن يراه، الذي يعطيه الكتاب لا يريد أن يراه.. وقيل: لأنه لا يستطيع أن يلاقي ربه حياءً وخجلًا، فيلتفت ولا يستطيع أن يرَ الله عز وجل.. وقيل: لأنه كان دائمًا يفعل الأعمال السيئة من وراء الناس، في الخفاء، فقد اعتاد على ذلك: أن يكون كل شيءٍ من وراء الظهور، أن يكون دائمًا مستخفيًا، فيأخذ الكتاب من وراء ظهره.. كما أن الأخذ من وراء الظهر فيه ذلة، فيه مهانة.. فالأخذ بالشمال كذلك فيه ذلة، وفيه إهانة.

{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ}: ماذا يفعل؟

فهذا المؤمن قام ينادي في كل الناس، قام فرحًا ينادي على الناس: {اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ}[الحاقة:١٩-٢٠] ، ينطلق فرحًا بين الناس.. فالشخص الذي يسجل هدفًا في مباراة ما يجري أمام الناس كلها، ولا يريد أن يوقفه أحد! فتخيل هذا الذي يأخذ كتابه بيمينه، ماذا سيفعل؟ يريد أن يجري في الجنة كلها فرِحًا، يريد أن ينظر كل الناس إلى ما فعله من قيامٍ وصدقةٍ لطالما أخفاها؛ خشوعًا لله عز وجل، وابتعادًا عن الرياء.. الآن يريد أن يُعلِم كل الناس أنه لطالما تعب لنصرة دين الله عز وجل.

ولكن ذلك الكافر –والعياذ بالله– والمنافق والفاجر يُنادي بأعلى صوته، ولكن ينادي على الهلاك، {فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا}[الإنشقاق:١١] أي يقول: يا هلاكي، يا وليتي، {يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ}[الزمر:٥٦] .. ولن تنفعه هذه المناداة، لن تنفعه هذه الحسرة {فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا}، ثم بعد ذلك {وَيَصْلَىٰ سَعِيراً }[الإنشقاق: ١٢]

{وَيَصْلَىٰ سَعِيراً } أي: يقاسي حر جهنم، يصلى أي يقاسي ويتعب ويدخل في داخل النار..
{وَيَصْلَىٰ سَعِيراً } ؛ لقد سار على طريق الشهوات فوقع في جهنم.

قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: حُفَّتْ النّارُ بالشَّهواتِ [١٠]

[١٠] حُفَّتْ الجنَّةُ بالمكارِهِ وحُفَّتْ النارُ بالشَّهواتِ

لقد اختار هذا الإنسان طريق الشهوات، وطريق الشهوات نهايته جهنم، هذا أمر معروف.. {إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}: لقد اخترت طريق الشهوات ونهايته هي جهنم.

كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: حُفَّتْ الجَنَّةُ بالمكارِهِ وحُفَتْ النّارُ بالشَّهواتِ .. فمن أعرض عن هوى نفسه ونهى النفس عن الهوى حتمًا سيصل إلى الجنة، لأن الجنة حفت بالمكاره.

{فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا}[الإنشقاق:١١-١٣]

طوال عمره لم يتذكر يومًا أن يصلي، ولم يفكر يومًا أن ينفق في سبيل الله، لم يخلد لنومه يومًا وهو خائف كيف لو مات ماذا سيفعل الله -عز وجل- به؟! لم يكن أبدًا خائفًا من الله -عز وجل-، لم يذكر أهله مرة بصلاةٍ ولا بصيامٍ ولا بنفقة، لم يفعل، كان في أهله غير مبالٍ بأي شيء { إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا} .

وقيل : معنى {إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا}: نفس نهاية السورة التي قبلها -سورة المطففين- آية: {وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ}[المطففين:٣١] ؛ أي: إنه كان في أهله مسرورًا لأنه كان يسخر من المؤمنين، وكان يستهزئ من أهل الإيمان ثم يعود إلى بيته مسرورًا بما فعل بأهل الإيمان، أي إنه كان في أهله مسروراً بسبب إيذائه لأهل الإيمان.

وهذه الآية توضح أن المشركين والمجرمين يكدحون ويتعبون ويتألمون لكي ينصروا باطلهم فهل يفعل ذلك المؤمنون؟

{إِنَّكَ كَادِحٌ} : أي أن المؤمن يتعب والكافر يتعب، المؤمن يتألم والكافر يتألم لكن لنصرة باطله ويفرح لانتشار باطله.

{إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا} : كان فرحًا بإيذاء المؤمنين، كان فرحًا بانتشار باطله، كان فرحًا بانتشار الشهوات! يحب ذلك: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا}[النور:١٩] ، فهو يحب أن ينتشر باطله ويفرح بذلك ويُسر بذلك.

العيني (٨٥٥ هـ)، عمدة القاري ٣٦٧/١٠ • صحيح

{ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا}: كل هذا بسبب {إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ}[الإنشقاق: ١٤] أي: ظن أنه لن يرجع إلى الله -عز وجل- فلم يفكر أنه سوف يحاسب، ولم يفكر أنه سوف يبعث ويسأل عن كل ذلك.

يحور أي: يعود، وقيل: يحور من (الحور): هو التغير، أي: ظن أن الأمر سيستقر كما هو؛ كما قال صاحب الجنتين: {مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَدًا}[الكهف:٣٥] .

فالمترفون في الدنيا يظنون أن الأوضاع ستظل كما هي، بل يظنون أنه حتى لو جاء البعث فإنه سوف يجد المال والبنين في الآخرة كما كان عنده في الدنيا.

{إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ}[الإنشقاق:١٤]

أي: ظن أن الأوضاع لن تتبدل، يظن أنه مثلما كان رئيسًا أو زعيمًا أو شريفًا في الدنيا فكذلك ستكون القيامة، مثلما كان غنيًا مستكبرًا هكذا ستكون الأوضاع يوم القيامة! هذا ظن خاطئ.

يقول الله -عز وجل-: {خافضة رافعة}[الواقعة:٣] يوم القيامة تتبدل الأحوال، تتبدل السموات والأرض، فما بالكم بالناس، تتبدل الأحوال، فالذي كان عزيزًا شريفًا مستكبرًا في الدنيا، يأتي يوم القيامة كأمثال الذر يطأه الناس بأقدامهم، والذي كان لا يؤبه له، أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لا يؤبه له، يأتي ملكًا يوم القيامة ويُشرَّف ويُرفع يوم القيامة.

إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهذا الكِتابِ أَقْوامًا، وَيَضَعُ به آخَرِينَ[١١] .. يُرفع الناس يوم القيامة بسبب ارتباطهم بكتاب الله عز وجل ويُخفض أناس يوم القيامة بسبب بعدهم عن كتاب الله -عز وجل-.

{ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ}[الإنشقاق: ٢١] : الذين لا يخضعون لكلام الله عز وجل سوف يحاسبون حسابًا عسيرًا، سوف يندمون على كل لحظة ابتعدوا فيها عن كتاب الله -عز وجل-.

{ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ}[الإنشقاق:١١-١٤] .

[١١] [عن عمر بن الخطاب:] ، أَنَّ نافِعَ بنَ عبدِ الحارِثِ، لَقِيَ عُمَرَ بعُسْفانَ، وَكانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ على مَكَّةَ، فَقالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ على أَهْلِ الوادِي، فَقالَ ابْنَ أَبْزى، قالَ: وَمَنِ ابنُ أَبْزى؟ قالَ: مَوْلًى مِن مَوالِينا، قالَ: فاسْتَخْلَفْتَ عليهم مَوْلًى؟ قالَ: إنَّه قارِئٌ لِكِتابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وإنَّه عالِمٌ بالفَرائِضِ، قالَ عُمَرُ: أما إنَّ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ قدْ قالَ: إنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بهذا الكِتابِ أَقْوامًا، وَيَضَعُ به آخَرِينَ.
مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٨١٧ • [صحيح]

ثم يقول الله –عز وجل–: { فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ}[الإنشقاق:١٦-١٩]

هذا ما سنعرفه بعد جلسة الاستراحة أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد –صلى الله عليه وسلم–.

هذه السورة العظيمة –أحبتي في الله– سورة الانشقاق هي الجزء الثالث الذي يعطيك النظرة الكاملة عن الدار الآخرة، كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم –: من سرّهُ أن ينظرَ إلى يومِ القيامةِ كأنّه رأيَ العينِ فليقرأ إذا الشّمْسُ كُوِّرَتْ وَ إذا السَّماءُ انْشَقَّتْ وَ إذا السَّماءُ انْفَطَرَتْ[١٢] .

فهذه السورة تتميز بمميزات عن غيرها، هذه السورة جاءت فيها ألفاظ لم تأتِ في غيرها، قال الله –عز وجل– فيها: {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّت}[الإنشقاق:٢،٥] .

هذه السورة تخبرك أن المخلوقات خاضعة لأمر الله –عز وجل–.. جاء فيها {إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}[الإنشقاق:٦]

أما في سورتي التكوير والانفطار؛ جاء {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ}[التكوير: ١٤] و {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ}[الإنفطار: ٥] .

كان مجرد العلم بالأعمال.. أما هذه السورة –الانشقاق– لا تتكلم عن مجرد العلم، ولكن عن لقاء هذه الأعمال التي تعبت أنت فيها {إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}[الإنشقاق:٦] .

هذه السورة تتكلم عن النتيجة، عن أخذ الكتاب، هذه السورة تتكلم عن تغير الأوضاع، فلابد أن تتغير الأوضاع، {إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ}[الإنشقاق: ١٤] الأوضاع لن تستمر كما هي لن يظل المستضعفون مستضعفين، ولن يظل المستكبرون مستكبرين، حتى لو ماتوا في هذه الحالة، فسوف يأتي يوم تنقلب فيه الأوضاع، سوف يأتي يوم الواقعة ، الخافضة الرافعة، تتبدل فيه الأحوال، تتغير فيه الأمور.

[١٢] الألباني (١٤٢٠ هـ)، السلسلة الصحيحة ١٠٨١ • إسناده صحيح • أخرجه الترمذي (٣٣٣٣)، وأحمد (٤٨٠٦) • شرح رواية أخرى

يقول الله –عز وجل–: { فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ}[الإنشقاق:١٦-١٩] .

يقسم الله –عز وجل– بلحظات الغروب، هذا الجو الذي تختلط فيه الحمرة بالبياض بالظلام، هذا الوقت الذي انتزع له اسمًا من مشاعر تحدث للإنسان حينما يراه، إنه الشفق.. إنها مشاعر الخوف.. يسأل فيها الإنسان نفسه، ما الذي سيحدث في هذا الليل؟ وما هي نتيجة هذا اليوم؟ وما هي نتيجة التعب الذي بذلته في هذا اليوم؟

إنها لحظات الشفق، هذه الحمرة التي تختلط بالظلام التي تنبئ عن تغير الأحوال، التي تنبئ عن ذهاب النور وإتيان الظلام، وأنه لا بد أن يتغير الوضع، فلقد كنت في النهار أبصر ماذا أفعل، فماذا سيحدث في الليل؟

بدايات الشفق هذا الوضع أقسم به الله –عز وجل– {فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ} .. وبعد الشفق تأتي مرحلة أخرى هي مرحلة الليل المظلم

{وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ} وسق: قال العلماء: أي ما جمع وضمّ؛ أي ما ضمه الليل من أحوال ومن أوضاع ومن هموم ومن مشاعر، الليل يضمّ تحته أوضاعًا كثيرة جدًا، الليل هو وقت الخوف، الليل هو وقت العبادة، الليل هو الوقت الذي يقوم فيه المؤمن في قيام الليل، الليل هو الذي تجتلب فيه الهموم على الإنسان. فلذلك أقسم الله عز وجل بما يضمّ هذا الليل من أشياء وهموم ومشاعر ونجوم وكواكب {وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ} .

ثم يخبرنا الله عز وجل أن هذا الليل المظلم لن يكون دائمًا مظلمًا، بل تأتي عليه أوقات يكون فيها البدر مكتملًا، { وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ } أي والقمر إذا أصبح بدرًا ينير هذا الليل.

يخبرنا الله عز وجل أن الأمور تتغير –هذه سنة– وأن هذا التغيير يكون فيه نوع من التدريج: الشفق ثم الليل ثم الليلة المقمرة أي التي طلع فيها البدر.

لم نعرف بعد ما هو جواب القسم وما المقصود بالقسم، نريد أن نفهم بماذا أقسم الله عز وجل؟ أقسم الله عز وجل بلحظات الشفق أي لحظات الغروب، ثم الليل المظلم، ثم الليلة المقمرة، أنَّ الله قادر على

أن يجعل في هذا الليل ما يضيء فيه بالرغم من كل هذه الظلمات، أنَّ الله عز وجل قادر على أن يجعل مخلوقًا ينير في وسط هذا الظلام.

{ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ } يقسم الله عز وجل ..

ثم يأتي جواب القسم : { لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ} ماذا تعني هذه الآية؟

في قراءتنا قراءة حفص { لَتَرْكَبُنَّ} والباء مضمومة هذا جمع، تعني لتركبن أيها المشركون طبقًا عن طبق، أي لتنتقلُنَّ من حال إلى حال.. معنى الآية: أي أيها المشركون، انظروا إلى سنة الله في الخلق، يكون هناك نهار ثم يأتي ليل ثم يضيء الله عز وجل هذا الليل بالقمر، ثم يأتي النهار.. أيها المشركون لا تظنوا أن الأوضاع ستظل كما هي، سوف يأتي يوم ينتصر فيه المسلمون الذين طالما استهزأتم بهم، وذهبتم إلى أهليكم مسرورين باستهزائكم بهم، سوف يأتي يوم وينتصر عليكم المسلمون! أيها المشركون سوف تتبدل الأحوال، سوف تنتقلون إلى دار أخرى تعذبون فيها ..

{ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ} أي لتنتقلُن من حال إلى حال، لتنتقلن من الدنيا إلى القبور، تضيّق عليكم الأرض، ثم لتنتقلن إلى يوم القيامة ثم لتنتقلن إلى النار، لتنتقلن من حال إلى حال، وكل حال أشد من التي قبلها.

أقسم الله عز وجل بسنته في الكون أن هذا سيحدث للمشركين، سوف تتبدل عليهم الأحوال.. لطالما قامت دول، لطالما قام جبارون في الأرض، قالوا: أنا أحيي وأميت، قالوا: أنا ربكم الأعلى، وقالوا وقالوا، أين هم الآن؟ {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا}[مريم: ٩٨] ؟ بل ماتوا وأذلهم الله عز وجل، وحتى من مات منهم مستكبرًا في الدنيا، ولم يذقه الله عز وجل الذلة في الدنيا، فسوف يأتي ذليلًا يوم القيامة!

أقسم الله عز وجل بسنته في خلقه أنه لابد أن تتبدل الأحوال، ليطمئن المؤمنون، وليكونوا على يقين أنه حتمًا ستتغير الأحوال.. ليس هناك شيء اسمه الدولة العظمى إلى ما لا نهاية، هذا الأمر غير موجود في سنن ربنا سبحانه وتعالى كسنة، وإن سلّط الله عز وجل عليها دولة مشركة أخرى، لكن لابد أن يكون هناك تدافع، حتى بين الروم والفرس –وكلهم مشركون– كان بينهم تدافع قبل قيام الدولة الإسلامية، هذا أمر قدره الله عز وجل سنة في هذا الكون.

وقيل في هذه الآيات { فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ } سنة الله تعالى في التغيير، {لَتَرْكَبُنَّ } الخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم {لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ} أي لتنتقلَن من حال إلى حال، يُطَمْئِنُ الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أنك ستنتصر، ستنتقل من مكة إلى المدينة، ومن المدينة إلى العالم، سينتشر هذا الدين {لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ} ..

وقيل: ستصعد إلى السماء، ستصعد طبقًا عن طبق، تبشيرًا بالمعراج، إذا ضاقت عليك الأمور فأبشر بمعراج الله لك، إذا رأيت كدح أهل الباطل لهدم هذا الدين، ووقفتَ تنصر هذا الدين، فأبشر بمعراج الله لك، أبشر أن الله عز وجل سيرفعك {لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ} .

وقيل أيضًا في معاني الآية: كما أنه يكون هناك ظلام ثم يأتي البدر، كذلك ما فعله الإنسان من معاصٍ سوف يأتي يوم ويفضح فيه

ومن معانيها أيضًا: مثلما بدأ الليل بالشفق (الخوف ولحظات الخوف)، ثم الليل وما وسق (ما يفعله الإنسان من طاعات في الليل)، ثم يأتي البدر بالنور للإنسان؛ كذلك الإنسان إذا خاف من الله عز وجل وعمل في الليل أعمال الطاعات وقام الليل، أنار الله عز وجل له قلبه.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: من خاف أدلج.. الذي يخاف سيمشي بالليل ويسرع ويسير ليلًا، من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزلَ..[١٣] ، الذي يخاف سيسير بالليل، سيقوم بالليل، ومن قام الليل أنار الله عز وجل قلبه.

وفي الآية الكثير والكثير من المعاني التي لا تنتهي، هذا هو كتاب ربنا لا يخلَق على كثرة الرد، مهما عدت إليه وقرأته وتدبرته فتح الله عز وجل لك منه معان ومعان.

{ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ} لتركبن أيها المشركون طبقًا عن طبق، لتتغير الأحوال عليكم، لن تستقر لكم الأحوال.

ثم يقول الله عز وجل: {فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[الإنشقاق:٢٠] بعد كل هذا ، {وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ}[الإنشقاق:٢١] ! السماء تستمع لكلام ربها وتنفذ وأنتم لا تسمعون كلام الله؟ {فَمَا

[١٣] [عن أبي هريرة:] من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزلَ، ألا إنَّ سِلعةَ اللهِ غاليةٌ، ألا إنَّ سِلعةَ اللهِ الجنَّةُ
الألباني (١٤٢٠ هـ)، السلسلة الصحيحة ٢٣٣٥ • صحيح بمجموع طرقه • أخرجه الترمذي (٢٤٥٠)، وعبد بن حميد في «المسند» (١٤٥٨)، وابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (١١٥)

لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} بعد كل هذا {وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ} هؤلاء يكذبون فضلًا عن أنهم لم يسمعوا، ما هو السبب؟ ما الذي في صدره يجعله يبتعد عن القرآن؟

{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ}[الإنشقاق: ٢٣] يوعون: أي صدره عبارة عن وعاء، صدره وعاء مليء بحسد وحقد وشهوات وغل للمؤمنين وحسد للمسلمين، {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ}: والله عز وجل أعلم بما في صدورهم من مكر وتخطيط لهدم هذا الدين، الله أعلم بما في صدورهم من شهوات {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ}

والنتيجة هي: {فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[الإنشقاق:٢٤] حتى وإن كنت مستضعفًا، فبشر المشركين بعذاب أليم، لا بد أن توقن بالدار الآخرة، لا بد أن توقن أن لله سنة هي سنة التغيير.

{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ} لن تستمر الأحوال كما هي، هذا أمر فطري مستقر، وهذه سنة من سنن الله عز وجل، {فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} التعب الذي ذاقوه لن يضيعه الله لهم {لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} أي غير مقطوع

الكدح الذي قاسَوْه، والتعب الذي تعبوه في الدنيا، والكبد الذي ذاقوه، والألم الذي تألّموه؛ لن يضيع عليهم، سيجزون به الفردوس بإذن الله عز وجل {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}

نسأل الله عز وجل أن تكون أعمالنا خالصة لوجهه سبحانه وتعالى، وأن يكون نصبنا وكبدنا وألمنا وكدحنا وتعبنا خالصًا لوجه الله عز وجل، وأن يرزقنا الفردوس الأعلى.

اللهم إنا نسألك برحمتك الفردوس،

اللهم إنا نسألك برحمتك رفقة النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة،

اللهم ارزقنا حسن الخاتمة،

اللهم إنا نسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك،

اللهم إنا نسألك حسابًا يسيرًا،

اللهم إنا نسألك الجنة بغير حساب ولا عذاب،

اللهم استعملنا ولا تستبدلنا،

اللهم اجعل أعمالنا خالصة لوجهك الكريم،

اللهم استعملنا ولا تستبدلنا،

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.